معروف سعد

٤٠ عامًا من النضال

ابن الفقراء الذي استشهد على رأس تظاهرة الصيادين بأول طلقة غادرة في المؤامرة الكبيرة

اول ما يلفت النظر في سيرة المناضل معروف سعد انه كان الرمز الوحيد الباقي لنضال الحركة الوطنية المتواصل في لبنان منذ الاستعمار الفرنسي ، بل منذ دولة فيصل العربية ، وحتى الهجمة الفاشية الاخيرة . واذا كان القسم الاعظم من تاريخنا المعاصر مطموسا ومهملا ، واذا كان العديد من الكوادر الوطنية في هذا البلد ، يفتقدون الى المعرفة الفعلية بتاريخ اجيال المناضلين السالفة ، فان الرجل الذي قتلته رصاصات جندي مشحون بالحقد في ٢٧ شباط كان بشخصه وبمواقفه وبمثابرته العجيبة خلال ما يزيد على اربعين سنة ، التجسيد الحي لتلك الحركة الوطنية المجهولة التراث .

لا مفر من استذكار اصول هذا المناضل الذي تنسج جماهير صيدا عنه حكايات تشبه الاساطير لفهم تلك الحوافزالبعيدة التي جعلته يشارك في اعظم الاحداث التي شهدتها بلادنا ـ من ثورة القسام و « عصابات » المناضلين في فلسطين ، الى نصب الكمائن في جنوب لبنان للشاحنات التي تحمل الطعام للصهاينة ، الى رفضه الدور القمعي الذي اوكله اليه نظام شمعون ، والى المقاومة الشعبية « الناصرية » في ١٩٥٨ وفي ١٩٧٣ . فقد افاق الرجل على النضال السياسي في حقبة كانت فيها سوريا الموحده هي الاطار الطبيعي للادراك وللنضال السياسي . وبدلا من الكيانات التي ترسخت في اذهان الاجيال الجديدة فان معروف سعد كان ينتمي الى سوريا الواحدة ـ الغربية ، او لبنان الحالي ، والجنوبية ، اي فلسطين المحتلة ، والشرقية التي اصبحت تدعى الجمهورية السورية . واذا ، فلم يكن القتال في فلسطين اغترابا او « مغامرة » او ابتعادا عن الواقع . بالعكس كان المسرح « السوري » الكبير هو المجال الطبيعي للنضال الوطني .

لكن سوريا التي كان معروف سعد ابنها البار ، لم تكن سوى قلب امة عربية ضاربة الجذور في ازهى عصور الخلافة والفتوحات ومتطلعة الى اعادة لم شتاتها المزق بحراب المستعمرين ـ ومن المحيط الى الخليج . وكانت دمشق قلب ذلك الامل الوحدوي ، وحاملة راية الانبعاث العربي القومي المتنور بأرقى الافكار التي انتجها عصر النهضة الاوروبي .

ان الاطار السوري جغرافيا ، والعروبي ايديولوجيا ، هو ذلك الخيط الرفيع الذي يضيء تاريخ ذلك الرجل العجيب ، والذي يفسر التصاقه المتواصل بالحركة الوطنية في بلادنا ـ وخاصة في اطارها الديني ـ وبتطوراتها الفلسطينية والناصرية . فبالنسبة لمن تفتحت عيناه على الدنيا ليشاهد ، وهو على كتف والده ، رفع علم دولة فيصل العربية على سراي صيدا ، فان ثورة القسام او دعوة جمال عبد الناصر او رصاصات الكفاح المسلح الفلسطيني لم تكن سوى الترداد العنيد والمتواصل لذلك الحلم الوحدوي و « النهضوي » الذي يتعثر تحت وطأة الاضطهاد الاجنبي والخيانات المحلية ، او تحت وطأة تخلفه وقصوره الذاتي ، الا انه ينبعث دائما ، اقوى ساعدا واكثر وعيا .

ان اعظم ما يمكن للمناضلين اللبنانيين او الفلسطينيين ان يقدموه وفاء لذكرى معروف سعد ، كمناضل وطني وقومي ، هو ان يحافظوا على ذلك التراث العروبي « النهضوي » الذي كان محرك معروف سعد، ومحرك جماهير الشعب بأسرها ، خلال تاريخنا المعاصر كله .

●●●

مناضل اجتماعي

لكن الاطلالة على الحركة الشعبية العروبية التي رافق « ابو مصطفى » مسيرتها خلال نيف واربعين سنة ، لا بد ان تطرح الجانب الاجتماعي من فكر وكفاح الرجل . فالحركة الوطنية لم تقتصر على شعاراتها القومية الاولى التي صنعتها ظروف الاحتلالين التركي والاوروبي . ففي خضم الصراع الوطني ، والكفاح القومي الشامل ، وبتأثير النكسات والهزائم بالاخص ، نبت الفكر الطبقي الذي يدرك ان « الامة » عبارة عن طبقات بعضها يتحالف مع المستعمر ضد شعبه ، وان جماهير الفقراء هي المنبع الذي لا ينفذ لاستمرار الكفاح القومي ، وقد جاءت مجمل العقود الماضية لتبلور افكار الصراع بين الفقراء الوطنيين والاغنياء العملاء للاجنبي ، ولتضيف للقومية العربية بعدها الاجتماعي و « الاشتراكي » .

وكانت ميزة معروف سعد ، كقائد وطني « مخضرم » ، انه لم يتوان عن مرافقة المسيرة الشاقة والتطور معها . وهكذا اكتسب معروف سعد وجهه الاخر : وجه معروف سعد ، زعيم الفقراء ، وقائد صيادي الاسماك والحرفيين وعمال الزراعة ، ولذا ، فلم يكن غريبا ان يموت معروف سعد في صدام بين فئات شبه حرفية تواجه خطر الانقراض والانسحاق وشركة رأسمالية « حديثة » يرأس مجلس ادارتها اكفأ عملاء الامبريالية في بلادنا . ان الجانب الاجتماعي من فكر ونضال معروف سعد كان بالتأكيد اقل نضوجا من جانبه القومي ، لكنه كان معبرا عن مستوى تطور الحركة الشعبية ، وكان على غرارها في القدرة على التطور المستمر .

●●●

اذا كان معروف سعد يحتل موقعه في التاريخ الوطني وفي الوجدان

مع الجماهير في كل وقت

الجماهيري بوصفه احد الرموز الاكثر تعبيرا عن الحركة الشعبية ، فان ملابسات مصرعه المفجع ومجريات ونتائج الحرب الاهلية المدمرة التي اجتاحت لبنان مؤخرا والتي كان سعد فاتحة شهدائها ، ذات دلالة كبرى على صعيد النواقص والاخطاء التي تعانيها الحركة الوطنية ، وبالنسبة لمستقبل هذه الحركة .

اصداء الاغتيال : اليمين اكثر تماسكا وافضل ادراكا !

واول ما يستلفت النظر في صورة المعسكرين اللذين كان حادث صيدا اشارة بدء الصراع لهما ، ان الاول ـ معسكر اليمين والفاشية ـ كان يمتلك المبادرة ، ومعها وضوح الرؤية والتصميم على المجابهة . وهكذا كان موقف السلطة واحزاب اليمين موقف الرافض لاية مهادنة والمصمم على البطش بالجماهير من غير مواربة . ولذا فان انفضاح دور الجيش مؤخرا في مقتل معروف سعد كان حافزا لليمين لكي يعلن الولاء المطلق للجيش ـ وليطالب بزجه في المعركة . وفي تلك اللحظات الاولى بدا المعسكر الرجعي ، بأطرافه الرسمية وغير الرسمية، متماسكا وموحدا في التخطيط والتنفيذ .

وبالمقابل ، بدا ان المعسكر الوطني والتقدمي فوجيء بتسارع الاحداث ، وبدموية المؤامرة ، وانه كان فاقدا للرؤية السليمة لكيفية المجابهة . وعوضا عن ان يكون حادث الاغتيال نذيرا بانتهاء « الحوار السلمي » مع الرجعية ، فان العديد من الاطراف الوطنية اخذت تتخبط في مواقف وسطية ومترددة ومساومة كانت تستهدف « تسوية » القضية والحؤول دون الانفجار ... بأي ثمن .

وبمعزل عن التصريحات التي اطلقتها بعض الاوساط الوطنية فور حادث صيدا من حيث اتهام « اليسار المنحرف » باثارة الفوضى ـ فان الجبهة الوطنية العريضة امتازت بموقفين اساسيين :

● كان موقف رئيس الحكومة آنذاك ، رشيد الصلح ، نموذجيا في التعبير عن تذبذب القيادات الاسلامية التقليدية بين الانصياع لغضبة الجماهير والمحافظة على « العلاقات الحسنة » مع القصر ومع احزاب اليمين . وهكذا تطورت قضية انزال الجيش لقمع جماهير